ما وراء المعنى
اللُّغة بما هي خبرة وجوديَّة

ليزا سعيد أبو زيد
باحثة في الفلسفة الحديثة. جامعة القاهرة. مصر

ملخص إجمالي:

اللُّغة السليمة هي التي تتَّبع منطق الكلمات، بإتقانها نتَّجه صوب متانة الجملة، وسلامة العبارة، وحسن البلاغة والبيان. وهنا يُنظر إليها ككلمات، سواء أكانت منطوقة أم مكتوبة، وبذلك تتحدَّد ماهيَّة الإنسان فيها بأنَّه هو من يملك القدرة على التكلُّم والتكليم.

ولكن ماذا عن ماهيَّة اللُّغة نفسها؟ بالطبع ليست هي الكلمات كما نظنُّ أحيانًا بحيث يتمُّ تجاهلها كخبرة ومعايشة... واعتبارها موضوعًا خارجيًّا، في حين أنَّها خبرتنا الخاصَّة؛ وبيت الوجود كما قال هايدغر. كذلك يتمُّ إغفال الجانب الآخر منها، والذي لا يظهر في الكلمات التي، إذا حُصر الاهتمام فيها صارت سجنًا للُّغة وسجنًا لنا نحن أيضًا؛ ما دامت هي مسكننا: إننا بذلك نؤطِّرها بما نريد لها ونرغب منها؛ فنُسجَن في سجنها وتكون هي الزنزانة الكبرى. وعليه، نسأل: ما هي اللُّغة التي تكون بداخلنا في فترة الصمت التي تسبق الكلام، أي حينما نفكِّر ويختمر المعنى، ونظلُّ لبعض الوقت نحاول التعبير في كلمات؟ إنَّها خبرتنا الحقيقيَّة بها؛ فهي التي تتحدَّث، ونحن ننصت لنترجم ما قالته لنا في كلمات... وهنا يضطرب المعنى ويختلف. أمَّا المعنى الخالص فهو بكرٌ نقيٌّ؛ لا وسيط له؛ حيث اللُّغة وحيٌ لا كلمات ولا عبارات، وهو الذي يدور بنا من أفق معنى إلى أفق معنى آخر. ولكي نصل إلى المعنى النقيِّ، علينا الإيمان بأنَّ اللُّغة هي التي تستخدمنا ولسنا نحن من نستخدمها؛ فنحن ننصت إليها، لكنها لا تنصت إلينا. ولسبر أغوارها، كان علينا أن ندرك أننا وسطاء، وأنَّها كينونة تامَّة.

* * *

مفردات مفتاحيَّة: (المعنى - المعنى الخالص - ما وراء المعنى - اللُّغة - الخبرة الوجوديَّة).

تقديم:

من أين يأتي المعنى؟ يأتي من الفهم، ومن أين يأتي الفهم؟ يأتي من المعرفة. وأما كيف تُتحصَّل المعرفة، فهذا ما تصعب الإجابة عنه الآن. ولكن بوجهٍ عامّ: لكي أفهَمك، عليك أن تتكلَّم وتوضح لي ما تريده، ثم أُحَصِّل بما لديّ من وعي، مستوى من الفهم لما أخبرتُ عنه. لذلك، فإفصاح أو حديث المُلْقي من خلال الكلمات (المنطوقة أو المكتوبة)، بالتضافر مع مستوى وعي وخبرة ومعرفة المتلقّي، إنَّما المنوط بهما تحديد المعنى؛ فمن المهمِّ والضروريِّ فهم وسائل المعنى، قبل محاولتنا فهم المعنى نفسه. وبعبارة أخرى، فلكي نُفهِم الآخرين ونَفهم عنهم، سنكون بحاجة للدخول في مجال الُّلغة الذي تتشكَّل فيه أفكارنا؛ ما دامت اللغة هي أساس الفهم وأساس المعنى.

ونسأل: هل ينتهي أمر المعنى عند فهم الُّلغة؟ إنَّ طبيعة الُّلغة بالغة التعقيد؛ فليست هي مجرَّد كلمات ننظمُها وننطقها أو نكتبها، وإنَّما هي تعبير عن ثقافة المجتمع وهويَّته، وهي تتفاعل على مرِّ التاريخ مع كلِّ جوانب المجتمع، وبناءً عليها، تنمو وتتطوَّر على نحو يختلف عن غيرها من الُّلغات المعبِّرة عن مجتمعات أخرى.

تشكِّل الُّلغة هويَّة الإنسان وحضوره في العالم، وبها يعبرِّ عن نفسه ويتفاعل مع الآخرين، وباضطرابها يحدث إرباك شديد في التواصل، وحالة من التيه والتخبُّط، هذا لو اختزلناها لمجرَّد قول وكلمات. ولكنَّها لا تتوقَّف على المقُول فقط، وإنما - أيضًا - الذي لم يُقل... ذلك الذي ما زال يقبع بداخلنا وما زلنا نفكِّر فيه، فنحن نعقد حوارًا داخليًّا معها أوَّلاً لنفكِّر، ثمَّ نصوغ الكلمات. وفي هذا الفكر تتدخَّل عوامل الثقافة التي ننشأ فيها، فتختلف تعبيراتنا لاختلاف ثقافاتنا. وليس هذا فحسب، بل إنَّنا نجد أيضًا إيماءات الجسد، والتي من الممكن أن تعطي معنى مغايرًا للمعنى الذي تعطيه الكلمات... وهذا ما صرَّح به ميرلوبونتي عنها باعتبارها إيماءة. كما أنَّنا نجد الصمت، الذي لا نعبرِّ فيه بكلمات، يخبرنا أيضًا بالكثير، كما أوضح جادامر من خلال مقاله عن «الصورة الصامتة». زد على ذلك أنَّنا نجد الأشخاص ذوي الانتماءات الُّلغويَّة المختلفة، يفهمون المعاني على نحو مختلف؛ فالُّلغات المختلفة لها قواعد ومفردات وأساليب تعبير مختلفة؛ ومن ثمَّ يمكن أن يكون لكلِّ لغة أسلوبها المختلف لوصف الشيء نفسه.

هنا تظهر مشكلة «عالميَّة المعنى»، هل من أمل بتحقيقها؟ وهل بوسعنا الاتفاق على معنى مشترك؟ وكيف يتأتى ذلك في ظلِّ كلِّ هذه الاختلافات؟ فالخلفيَّة الثقافيَّة والاجتماعيَّة والتاريخيّة والدينيّة للأشخاص، تؤثِّر على فهمهم للمعاني. وقد يكون من الممكن أن تُفهم الكلمات المستخدمة في التعبير عن مفهوم معيَّن، بشكل مختلف لدى المجتمعات المختلفة، ويمكن أن تكون للكلمات دلالات إضافيَّة تختلف من ثقافة إلى أخرى... وهكذا.

من أجل ذلك، تبدو قضية المعنى شديدة التشابك والتعقيد، وتدخل الُّلغة في صلبه، وهي بدورها تتداخل مع الثقافة والهويَّة والبناء المعرفيِّ والأنطولوجيِّ للأفراد. ومن ثمَّ فليس بوسعنا الخروج برؤية محدَّدة للمعنى ما لم نُمعِن في الرجوع إلى الوراء... إلى ما وراء المعنى نفسه. وبما أنَّ خلف المعنى يوجد معنى، فإنَّ لغة المعنى تختلف عن لغة ما وراء المعنى.

في هذا المقال سنحاول عرض الُّلغة باعتبارها كلمات وعبارات، وكيف يؤثِّر فهمنا لها في فهمنا للمعنى، ثم نُعَرِّج على ما هو أعمُّ وأشمل، إلى ما وراء المعنى، أو إلى المعنى الخالص النقيّ، إذا جاز لنا التعبير، وهو الذي وإن كان يعتمد على الُّلغة، فهي ليست الُّلغة المتمثِّلة في الكلمات أو في أيِّ موضوع خارجيٍّ، وإنَّما تتمثَّل فيها باعتبارها خبرة داخليَّة، وباعتبارها إظهارًا للموجودات، أي تلك التي وصفها هايدغر بأنَّها تجلب الأشياء إلى الوجود، ودونها لا يوجد شيء. وهذا ما عبر عنه في مقولته الشهيرة: «جلب الُّلغة إلى الُّلغة بوصفها لغة»، وكلمة «الُّلغة» هنا تُحمل على معانٍ مختلفة؛ لذلك فمعنى هذه العبارة هو «جلب الُّلغة (أي إظهار ماهيَّتها) بوصفها لغة (أي بوصفها قولًا) داخل الُّلغة (أي في الكلمة المنطوقة)»[1]. هذا الأمر يعني ضرورة البحث في ماهيَّتها بوصفها لغة تتمثَّل في القدرة على الكلام، وبوصفها خبرة نختبرها بأنفسنا. ومن خلال فهم ماهيَّتها سنتعرض لفهم موضوع الفكر الذي يؤدّي بنا إلى التفكير الشعريِّ؛ فننطلق من الفكر إلى الُّلغة والشعر.

في النهاية، نسأل: أنختار المعنى أم ما وراء المعنى؟ أيُّهما يسهم ويصبُّ في نسْج الفهم وبناء المعرفة البشريَّة وصياغة وصيانة الوجود الإنسانيّ؟ وهل تُرانا نتَّفق ونجد المساحة المشتركة للفهم من خلال المعنى أم ممَّا وراء المعنى؟

وجودية هايدغر والُّلغة:

الُّلغة، التي نظنُّ أنَّنا نفهمها حقَّ الفهم، وأنَّها أمر بدَهيٌّ وشيء رخص مباح من فرط تداولها، والتي -أيضًا - أوْسَعها الُّلغويون والنحويون وفقهاء الُّلغة وفلاسفة التحليل... إلخ، أوسعوها فحصًا وتحليلاً ومحاولة للوقوف على أسرارها ونُظُمها ونشأتها وأهدافها ومدى ملاءمتها كأداة للإخبار عن الواقع أو للتعبير عن الأغراض البشريَّة. نقول إنَّ هذه الُّلغة، عمل هايدغر ليُظهرها في ثوب قشيب وحُلَّة زاهية؛ فهو يَعْبر من فوق أسوار النحو والبلاغة والتراكيب المنطقيَّة، ليبحث في ماهيَّتها؛ ويقف على حقيقتها ومعايشتها كخبرة، ويصل بنا إلى نتيجة مؤدَّاها أنَّها هي التي تتحدَّث، وهي التي تستخدمنا، لا نحن من نستخدمها! الُّلغة تتحدَّث من خلالنا، وعلينا أن ننصت لحديثها ونفسح لها المجال لتتحدَّث. بعبارة أخرى، أن «ننصت إلى الُّلغة على هذا النحو الذي نتيح فيه لها

[1]- سعيد توفيق، في ماهيَّة الُّلغة وفلسفة التأويل، (2002)، المؤسَّسة الجامعيَّة للدراسات والنشر، بيروت، ص38.

أن تقول قولها لنا، وكلُّ إدراك وكلُّ تصوُّر إنما يكون متضمّنًا من قبل في هذا الفعل»[1]. وحديث الُّلغة هنا ليس الكلمات المنطوقة، وإنما الإظهار، وجلب الأشياء إلى الوجود، وإخراجها من طوايا التحجُّب.

من الُّلغة إلى الفكر، يرشدنا هايدغر إلى ضرورة معايشة الُّلغة كخبرة، والإنصات لصوتها بداخلنا... فلا بدَّ من تغيير طرائقنا في التفكير. ومن التفكير والُّلغة على هذا الوجه، نصل إلى فهم للوجود يستدعي الُّلغة بالمعنى «الهايدغري»؛ لكي يُفصح عن نفسه من خلالها. فهي التي تضفي الحضور على الموجودات، وتكسبها وجودها المتعيّن، وهي، من ثمَّ، بيت الوجود.

ولسوف يظهر لنا، بالتدريج، طبيعة الرؤية الهايدغريَّة الجديدة للُّغة وعلاقتها بالتفكير، وما تؤدّي بنا إليه من فهم للوجود والتعبير الأمثل عنه من خلال الشعر، وما تتيحه للموجود الإنسانيِّ، حينما يصل لدرجة الانفتاح والإنصات إلى الُّلغة والاستسلام للوجود، من حدوث الإنارة له، وتجلّي الحقيقة له من طوايا التحجُّب ليشهد ما لا يمكن التعبير عنه إلَّا شعرًا.

ومن المفيد القول أنَّ الُّلغة والتفكير الشعريَّ، وعلاقتهما بالوجود، ليسا مجرَّد أفكار فلسفيّة، وإنما هما يمثِّلان أساسًا للفلسفة، التي هي - بدورها - أساس للمعرفة عمومًا. فقد شرح هايدغر ماهيَّة الفكر وماهيَّة الُّلغة وحاجة كلٍّ منهما للآخر، وتجلّيهما كأوضح ما يكون في الشعر؛ حيث أضحت الُّلغة، معه، خبرة وتجربة معيشة، خلافًا لما جرت به العادة في الفلسفة من مقاربات علميَّة للُّغة كموضوع خارجيٍّ، وهو ما يتبدَّى في علومها من نحو وبلاغة وفقه... إلخ.

ويُعدُّ أصحاب التحليل المنطقيِّ للُّغة، وسليلتهم الشرعيَّة (الوضعيَّة المنطقيَّة)، الاتجاه الأكثر بروزاً وتمثيلاً لهذه النزعة؛ حيث نجدهم يعمدون إلى اختزال الفلسفة برمَّتها إلى ضرب واحد من الفلسفة دونها الَّلغو، وهي أنَّ الفلسفة علميَّة، وينبغي أن يكون همُّها الأول والأخير هو التحليل المنطقيَّ للقضايا العلميَّة. والعالَم بالنسبة إليهم هو عالم الوقائع الذي يعدُّ مرجعنا في التحقُّق من القضايا التي تحمل عنه خبراً. ولإنجاز هذه المهام، اعتمدت الوضعيَّة المنطقيَّة على دعامتين رئيستين: العلم المعاصر وما أنجزه من ثورة معرفيَّة كبرى، والمنطق الرياضيّ وما تسلَّح به من مضاء وحزم.

وها هو ألفرد آير، واحد من كبار ممثّلي هذا الاتجاه، يحاول في كتابه «الُّلغة والصدق والمنطق» أن يحلِّل قضايا الأخلاق والدين والجمال، على نحو يستدرج القارئ من خلاله إلى الاقتناع بأنَّ هذه القضايا خالية من المعنى؛ لأنَّها تقدِّم مزاعم لا يمكننا الاحتكام فيها إلى الواقع للتحقُّق منها، ومن ثمَّ لا يمكننا الحكم عليها بالصدق أو الكذب؛ لأنَّها ببساطة تتعلَّق بخبرة فرديَّة خاصَّة قوامها

[1]- المرجع السابق.

العواطف والانفعالات. وقل هذا في الأفكار المجرَّدة، مثل الجوهر والعدم والماهيَّة؛ فهي ليست إلّا أفكارًا ميتافيزيقيَّة، أي مجرَّد لغو في عرف هذا الاتجاه. لذلك فقد استبعد آير، شأنه شأن هذا التيَّار ككلّ، قضايا الميتافيزيقا لخلوِّها من المعنى، ودعا إلى طرحها تمامًا من حلبة الفلسفة، وإن أمكن إدراجها ضمن علم النفس وما سواه من العلوم التي تدرس الخبرات الفرديَّة والشعوريَّة.

وخلاصة آراء آير في هذا الكتاب أنَّ الميتافيزيقا مستحيلة؛ لأنَّ قضاياها خالية من المعنى. والعبارة لا يكون لها معنى بالفعل ما لم تكن هناك وسيلة يتَّخذها الإنسان لتعيين صدق أو كذب هذه العبارة. وما لم تستطع التجربة حسم المشكلة، فإنَّ هذه المشكلة ليست بذات معنى واقعيّ.[1]

على أنَّ لغة هايدغر ممَّا لا يمكن الحكم عليه إذا ما اعتمدنا أسلوب التحليل المنطقيِّ والعلميِّ؛ لأنَّها لغة تقف على النقيض من مثل هذا اللون من المنطق والتفكير، وهي لغة يجب فهمها كخبرة معيشة؛ «فينبغي أن نتعامل مع لغة هايدغر مثلما نتعامل مع نصٍّ أدبيٍّ إبداعيٍّ يقودنا إلى خبرة ما»[2] في سبيلها إلى التكشُّف. وهو خلافًا لما سارت عليه أساليب تناول الُّلغة منذ القدم؛ إذ إنَّه «منذ الزمن الإغريقيِّ تمَّت تجربة الكائن بصفته ما هو حاضر، ونظرًا لأنَّ الُّلغة كائنة فإنَّها تنتمي (.....) إلى ما هو حاضر».[3] ومن هذا الفهم اختُزِلت في الكلام والنطق، وتلخَّصت في الدراسات النحويَّة والبلاغيَّة والمنطقيَّة، وماعَتْ في هذا الخِضمِّ ماهيَّتها وضاعت، بينما يحتاج فهم الوجود إلى فهم هذه الماهيَّة لأنها مسكنه.

لم يكن هايدغر يهدف من وراء ذلك وصولاً لجَلْو المعنى من خلال إصلاح طرائق تفكيرنا، والتي تتطلَّب فهم ماهيَّة الُّلغة؛ وما سيعكسه ذلك على فهمنا للوجود ككلّ، وإنَّما تمثَّل هدفه الحقيقيُّ في معايشة خبرة الُّلغة... استحضار أبعادها الأنطولوجيَّة. وما مسألة المعنى وجَلْوِه إلّا أمرٌ عارضٌ في سبيله لهذا الهدف. ومع ذلك، تشير ماهيَّة الُّلغة عنده إلى أنَّ مشكلات المعنى أكثر تعقيدًا ممَّا تصوَّرنا.

أنطولوجيا الُّلغة:

حين انصبَّ اهتمام الفلسفة، في العالم الأنكلوسكسونيِّ، على دراسة وتحليل الُّلغة؛ أُهملت تلقائيًّا، أو عمدًا، مقاربات فلسفيَّة أخرى على قدر كبير من الأهميَّة، مثل الدراسات الُّلغوية في الفينومينولوجيا والهيرمنيوطيقا. حيث تعمل فلسفتها على مشروعين أو طرحين: «يتعلَّق الطرح

[1]- Alfred Jules Ayer, (1945), Language, Truth, and Logic, London: Gollancz, 2nd Edition, P (13 -16).

[2]- سعيد توفيق، الُّلغة والتفكير الشعري عند هيدجر،(1998)، القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، صـ 17.

[3]- مارتن هايدغر، (2003)، كتابات أساسيَّة، الطريق إلى الُّلغة (6)، ترجمة وتحرير إسماعيل مصدق، القاهرة: المجلس القومي للترجمة، الجزء الثاني، العدد505، صـ264.

الأول بأهميَّة الُّلغة العاديَّة وخصوصيَّتها، والثاني بالمنهجيَّة الفلسفية».[1]

ولقد حاول هايدغر أن يميط الِّلثام عن جوانب أخرى من ماهيَّة الُّلغة، تختلف عن الجوانب المعتادة في الفكر الفلسفيِّ التقليديِّ، والذي تبدو معه الُّلغة عاجزة لارتباطها بالفكر الفلسفيِّ الذي بلغت أزمته منتهاها؛ ولذلك طالب بنهاية الفلسفة وبداية الفكر... ذلك الذي يستوجب لغة جديدة تشمله.

«فالُّلغة الفاسدة للفلسفة التقليديَّة، والتي تتجلَّى في مفاهيم مثل «الوعي» و «الأنا» و «الشيء»... إلخ، ليست مناسبة للتعبير عن هذه المنطقة الجديدة من البحث؛ فإذا أردنا أن نتأمّل الوجود، كوجود، وليس مجرَّد موجود، كان لزامًا علينا استخدام مفردات مختلفة، بل وبناءً مختلفًا في بعض الأحيان... ولكن إلى أين نتَّجه؟ قد يتمثَّل أحد الحلول في العودة إلى لغة السوق والمفردات الواقعيَّة التي استخدمها سقراط في حواراته وأفكاره».[2] ولكن حتى لغة السوق في حوارات سقراط ومحاورات أفلاطون، ليست ذات مفاهيم واضحة في الحياة اليوميَّة، فهي أيضًا بحاجة إلى إيضاحات لفهمها، وهذا ما يجعلنا نعود مرَّة أخرى إلى الفلسفة التقليديَّة لنفهمها جيّدًا أوَّلًا، ثمَّ نتجاوزها.

ما يريده هايدغر هو العودة إلى الينابيع الأولى للاندهاش الفلسفيِّ، قبل البناء المعرفيِّ المنظَّم. وهو يتعجَّب من اعتيادنا الُّلغة على هذا النحو، واختزالها في فعلَيْ الكلام والكتابة، من دون أن ننتبه إلى ما تثيره فينا. فنحن حينما نجلس لنفكِّر ونكتب لا نعي ما يحدث. فقط يدور الفكر في الذِّهن، يتبعه تعبير بالكلمات، نكتبها على الورق... ولكننا لا نتساءل أبدًا عن هذه العمليَّة المذهلة التي تضطرب فينا؛ لأنَّنا ببساطة اعتدنا الُّلغة فما عادت تثير فينا الدهشة أو التساؤل... هي عمليَّة نقوم بها في الطريق إلى شيء ما؛ الأمر الذي يؤدّي بنا إلى الفشل في تجربة أبعادها الكاملة. ويتمثَّل قلقه واندهاشه في تجربتنا حين نبدأ بالتفكير، ومن ثمَّ الكتابة: كيف تستطيع الُّلغة التجاوب وإضفاء الأسماء على الأشياء، والاستجابة لنا بالتعبير عمَّا يجول بخاطرنا ويضطرب بداخلنا في كلمات معدودات؟ لماذا لا تُصيبنا هذه العمليَّة بالدهشة؟ وما هي علاقتنا بالُّلغة، بحيث نجد أنفسنا ملزمين بالفعل عندما نطرح صراحة فكرة أو كلمة أو جملة؟[3]

الُّلغة عند هايدغر - إذن - تجربة معيشة؛ فهي تسكننا وتشكِّل تجاربنا، وهو يريد منا أن نفهمها

---

[1]- عبد الغفار مكاوي، نداء الحقيقة، مرجع سابق، صـ152.

[2]- **Michael Inwood, (2000), A Heidegger Dictionary, Series: The Blackwell philosopher, Blackwell Publishers, P2.**

[3]- **See, John T. Lysaker,Language and poetry , In Bret W. Davis2014),), Martin Heidegger: Key Concepts, Routledge, P(312 -315).**

وندخل معها في علاقة. على أنَّ هذا الفهم يختلف في جوهره عن فهم علماء اللُّغة؛ فاللُّغة التي تتمثَّل في الكلمات فقط إنَّما هي عاجزة عن وصف الوجود؛ لذلك يلجأ إلى لغة الشعر، فهي الأبعد غورًا، والأكثر عونًا على حشد الكثير من المعاني في القليل من الكلمات، والتعبير عن مكنون مشاعرنا في سطور أو شطور معدودات، عمَّا نعجز عن وصفه والتعبير عنه باللُّغة الدارجة، ولا حتى باللُّغة الأكاديميَّة. فالتفكير في ماهيَّة اللُّغة يُلجئنا لطلب العون من الشعراء؛ نظرًا لعلاقتهم المتميّزة بها. ففي تحليله لقصيدة «الكلمة» للشاعر الرمزي ستيفان جورج (1868 Stefan George-1933) يحاول هايدغر التعرُّف على علاقة الشاعر باللُّغة، ومن خلال القصيدة يعلن أنَّ الأسماء هي ما تضفي على الأشياء وجودها؛ فإعطاء شيء ما اسمًا، إنما يعني جلبه من الغياب إلى الحضور؛ ذلك أنَّ «الكلمة هي التي تُظهر الموجود أمام الشاعر أو أمام غيره من الناس».[1]

وفي السياق نفسه، وبالنظر إلى عمليَّة إضفاء الأسماء على الأشياء، وما لشأنها من جلال خطر، يبين لنا المفكِّر العربيُّ مالك بن نبي، في كتابه «مشكلة الثقافة»، أنَّ الاسم هو أول درجات المعرفة، وهو «أول خطوة نخطوها نحو العلم. فإذا سمّيتَ (شيئًا) فمعنى ذلك أنك تستخرج منه فكرة معيَّنة، أي أنك تؤدّي أول عمل من أعمال المعرفة بالنسبة إلى ذلك الشيء، وهو العمل الذي يغيّر «حضوره» المجرَّد في ذلك الامتداد الهائل الذي يحوط (الأنا) إلى (وجود) تدركه (الأنا)». «ولو أنَّنا قرأنا وصف الحقّ تبارك وتعالى للمشهد الذي يدعو فيه آدم إلى تسمية الأشياء بأسمائها في قوله: ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾[2] – فربما أخطأنا فلم ندرك معنى الآية إلَّا على أنَّه يصف لنا مشهدًا بسيطًا؛ والأمر على عكس ذلك تمامًا، فينبغي أن نرى هنا في تلك الصورة الرمزيَّة أول عمل جوهريٍّ للعقل الإنسانيِّ حين يسيطر على الأشياء، وهو يخلع عليها أسماءها، الأمر الذي لم تستطعه الملائكة». «فالاسم إذن هو أول تعريف للشيء الذي يدخل في نطاق شعورنا، فهو تصديق على وجوده، وهو القوَّة التي تستخرجه من الفوضى المبهمة فتسجله في عقلنا في صورة حقيقيَّة محدَّدة».[3]

وبالعودة إلى هايدغر، نجده يفرِّق بين الكلام والقول. فالكلام هو ماهيَّة الإنسان وليس ماهيَّة اللُّغة، وهو ما يظهر منطوقًا أو مكتوبًا. أمَّا القول، فهو ليس المنطوق الذي نتحدَّثه فيظهر فقط، وإنَّما أيضًا ما لم يُقل ويظلّ حبيس النفس، وهو ليس ماهيَّة الإنسان، وإنما هو ماهيَّة اللُّغة. وهذه الماهيَّة هي ما يدعونا هايدغر إلى التفكير فيها. وهي تكمن في قدرتها على إظهار وكشف هذا القول

[1]- عبد الغفار مكاوي، نداء الحقيقة، مرجع سابق، صـ152.

[2]- سورة البقرة، الآيتان 31-32.

[3]- مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، (1984) ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، ط4، ص20،21.

الكامن في الصمت؛ فاللُّغة «تتحدَّث بواسطة القول، أي بواسطة الإظهار، فالقول بوصفه إظهارًا هو ماهيَّة اللُّغة عند هايدغر».[1]

ولا يتأتىَّ الإظهار هنا إلَّا باستسلام الذات إلى اللُّغة وتركها لتتحدَّث، وعلاقة الذات باللُّغة هنا، والمتمثّلة في الخضوع، هي علاقة سلبيَّة، ولكنه السلب الذي فيه منتهى الإيجاب؛ فلكي تحصل الذات على الخبرة باللُّغة فهي بحاجة لأنْ تخضع لها، أن تُسَلّم... ها هنا تحدث خبرتها. ولئن كانت «اللُّغة هي التي تحدِّد ماهيَّة الإنسان باعتباره الموجود القادر على الكلام أو التحدُّث... فمهمَّتنا هي أن نتيح للُّغة أن تتحدَّث، أن نتيح للُّغة أن تكون لغة... تفصح عن ماهيَّتها كلغة في فعل الكلام».[2] علينا فقط أن ننصت إلى الصوت الكامن في داخلنا للُّغة، أن نستمع إليها وهي تتحدَّث من خلالنا؛ فهي خبرة خاصَّة نعيشها، ووطن نسكنه، وهي التي تحدِّد وجودنا وتصفه. «ومن هنا يرى هايدغر أنَّ ما يقال ليس مجرَّد شيء ما ينقصه الصوت، إنَّما هو ما يبقى لا مقولاً (أي مسكوتًا عنه)، ما لم يتمّ إظهاره بعد لم يبلغ مظهره الحيَّ بعد».[3]

لا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ اللُّغة اليوميَّة للموجود الإنسانيِّ هي التي تتمثَّل في الكلام المقول، ولكنَّ اللُّغة التي لا تقال، الكامنة في الصمت، هي مقصدنا، وهي التي لا تنبلج إلَّا شعرًا؛ لما تنوء به من معان، وهي التي تتكشَّف وتخرج من تحجُّبها للموجود الإنسانيِّ ليفهم وجوده، ومن ثمَّ الوجود العامَّ نفسه، لتتجلَّى له الحقيقة. وهذا الموقف أشبه بالموقف الصوفيِّ في التراث الإسلاميِّ، وربما في التراث الإنسانيِّ كلِّه. فهذا عبد الجبَّار النفَّري، وهو واحد من كبار الصوفيَّة، يقول: «كلما اتَّسعت الرؤية، ضاقت العبارة». وهذا ما يفسِّر لنا أنَّ كتابات الصوفيَّة، ومصداقًا لما يشير هايدغر إليه ويؤكِّد عليه، تدفَّقت في معظمها شعرًا... حتى جلال الدين الرومي، الذي كان فقيهًا، لم يجرِّب في حياته من قبل القريض، فإذا به، وفي تحوُّل حاسم اكتسح حياته، يرتفع إلى سماء الوجد الصوفيِّ، فتتفجَّر فيه ينابيع الشعر لتكشف عن رؤاه في الوَجْد والوجود والحياة؛ فتُجري أنهارًا من أروع ما فاضت به القريحة الإنسانيَّة.

من أجل هذا كلِّه، وجد هايدغر ضالَّته في التفكير الشعريِّ، والذي يعني به الشعر بمعناه الواسع وليس بمعنى فنِّ القصيدة فحسب؛ فهو حينما يتحدَّث عن خبرة الشعر إنَّما يقصد بها «خبرة ممارسة التفكير الشعريِّ، الذي يكون ماثلاً في كلِّ فنٍّ، وكلِّ تفكير أصيل باعتباره عمليَّة جلب وإظهار الموجود إلى مجال الانفتاح».[4]

[1]- نقلاً عن: سعيد توفيق، اللُّغة والتفكير الشعري عند هايدغر، مرجع سابق، صـ24..

[2]- المرجع السابق، صـ22.

[3]- المرجع السابق، صـ28.

[4]- المرجع السابق، صـ35.

وهكذا، يقدِّم لنا رؤية جديدة للُّغة، أو هو يعيد بعث رؤى قديمة أهيل عليها غبار النسيان والتجاهل، حيث لم تعد اللُّغة موضوعًا خارج الذات يخضع للملاحظة والدراسة، وإنما أضحت تجربة معيشة للكينونة، تتفاعل معها وتنفعل بها. وتندرج محاولته لفهم جديد لفلسفة اللُّغة في إطار الهيرمينوطيقا الفينومينولوجيَّة. وقد كان له أبلغ الأثر في أعلام التأويل في الفلسفة المعاصرة، مثل غادامر وريكور ودريدا، بل لقد امتدَّ تأثيره إلى الدراسات النقديَّة والأدبيَّة، وهذا إن دلَّ فإنما يدلُّ على عظمة الفيلسوف؛ لأنَّها تتحدَّد، لا من خلال المجال الذي ينتمي إليه فحسب، وإنما أيضًا من خلال آثاره خارج ميدان الفلسفة؛ أي من خلال استرشاد مجالات أخرى بأعماله.

من اللُّغة إلى الفكر إلى الوجود:

«ولد أرسطو، تعب ومات». هكذا افتتح هايدغر محاضرته عن أرسطو؛ حيث تتلخَّص حياة الفيلسوف في فكره الذي يحاول من خلاله فهم الحقيقة وفهم الوجود؛ فيحيا في الهمِّ والقلق وتنتهي حياته بالموت ويبقى الفكر... فحياة الفيلسوف هي فكره، وتجربته على طريق الحياة هي تجربته على طريق الفكر».[1]

هو يرى أنَّ الفكرة لا ينبغي لها أن تبقى مجرَّدة وبعيدة عن الإنسان، وإنما يجب أن تتغلغل في كيانه وتدخل في صميم وجوده، ليكون لها القدرة على إحداث التحوُّلات في حياته. من هنا كان التحوُّل الذي رغب فيه لفهم الوجود، بدلاً عن اعتماد الرؤية التقليديَّة في الفلسفة، والتي اعتبرت فقط الوجود بما هو موجود، ولم تولِ اعتبارًا لمعنى الوجود نفسه. من أجل ذلك وجد أنَّ الطريق الصحيح هو التفكير في الإنسان من جهة الوجود لا العكس، أي «التفكير في الإنسان وفي الواقع المتناهي بأكمله من جهة الوجود... وهي رجعة الفكر أو عودته للوجود نفسه»[2]. فالفكر عند هايدغر أصبح هو المحدِّد لحياة الفيلسوف، فما حياته إلَّا فكره؛ لذلك دعا إلى تحطيم الفلسفة القائمة على الفكر الميتافيزيقيِّ وتجاوزها إلى فكر جديد، «فكر ينبع من حقيقة وجودنا في العالم ويفتِّش عن المعنى الكامن في كلِّ ما هو موجود. أصبحت فكرًا لا يسعى لغاية تحيط بها هالة غامضة كالعلم أو المعرفة، لأنَّ غايته الوحيدة هي السعي نفسه، أي الحياة ذاتها».[3]

ويجدر القول أنَّه حين يرعى الموجود الإنسانيُّ الوجود حتى يتكشَّف له من خلال الإنارة، فهذا ضرب من الفكر فوق طاقة الفلسفة بمعناها التقليديِّ؛ ذلك أنَّ «فكر المستقبل لن يكون فلسفة وإنما سيكون - على حدِّ تعبير الفيلسوف وبلغته المنحوته بأزاميل ثقيلة - «فكرًا في حالة الهبوط» في فقر

[1]- عبد الغفار مكاوي، نداء الحقيقة، مرجع سابق، صـ51.
[2]- المرجع سابق، صـ13.
[3]- المرجع السابق، صـ 56.

ماهيَّته المؤقَّتة، وسوف يكون عليه أن يجمع الُّلغة في القول البسيط»[1]. لقد تكلَّم هايدغر عن عجز الُّلغة والفلسفة التقليديَّة في وصف الوجود، لذلك دعا إلى فكر جديد يتجاوزهما، فكر جديد يكون قريبًا من الشعر، وهو الذي يمكنه أن يفتح لنا أفق الوجود، وكان النموذج الذي رآه يتمثَّل في شعر هلدرين وفي فلسفة الفلاسفة السابقين على سقراط، وخصوصًا بارمنيديس وهيراقليطس.

إنَّ علاقة الفكر بالُّلغة عند هايدغر علاقة تواشج وتفاعل واندماج؛ فليست الأفكار مجرَّد صور ذهنيَّة مجرَّدة نعبِّر عنها من خلال الُّلغة المنطوقة كما قد جرت العادة بمقاربة العلاقة بينهما، وإنما يرتبط لديه الفكر بالُّلغة والوجود في كلٍّ موحَّد؛ ذلك أنَّ «الوجود نفسه يفكِّر فينا وبنا، أو هو يتعقَّل ذاته من خلال لغتنا نفسها»؛[2] فالتفكير لا يعني أن نضع الأفكار في قوالب الُّلغة، وإنما هو لغة الوجود غير المنطوقة، والوجود يتكلَّم من خلالنا، وفهم لغته وكلامه لا يعني ترجمتها إلى لغتنا المنطوقة بقدر ما يعني الإنصات والفهم؛ «وهذا هو السبب في أنَّ هايدغر يختم رسالته عن النزعة الإنسانيَّة بقوله: «إنَّما الُّلغة لغة الوجود، كما أنَّ السُّحب سُحب السماء»[3]، ذلك أنَّ ماهيَّة الفكر عنده لا تتمثَّل في «التفكير الحاسب» الذي نعتمده في حياتنا اليوميَّة، والذي نكون مكلَّفين فيه بالقيام بمهام معيَّنة، مثل التكليفات الأكاديميَّة بالكتابة في موضوعات محدَّدة. وإنما تتمثَّل في التفكير الأساسيِّ للإنسان، وهو «التفكير التأمُّلي»، حيث يقول: «هناك نوعان من التفكير، كلٌّ منهما مشروع وضروريٌّ: الفكر الحاسب، والفكر المتأمِّل، وهو حينما نشير إلى أنَّ الفكر المتأمِّل يسبح في الأعلى، وأن لا صلة له بالواقع، وأنه لا يساعد على إنجاز الأعمال المألوفة، ولا يساهم في تحقيق الإنجازات ذات الطابع العمليّ».[4] وهذا هو التفكير الحقيقيُّ الذي لا يسير وفق برنامج أو خطَّة محدَّدة منذ البداية، وإنّما ننصت فيه إلى دواخلنا ونفكِّر في ما يدهشنا لنقدِّم ما خبرناه في لغة شعريَّة؛ حيث يتكثَّف المعنى. وهو لا يقصد بالتفكير الشعريِّ التأمُّلي أو خبرة التفكير الشعريِّ - كما أسلفنا - فنّ القصيدة حصرًا، وإنَّما يقصد الشعر بمعناه الواسع، الذي يجلب الحضور للأشياء: فإضفاء الأسماء على الأشياء يجلبها للوجود. بهذا تصير الكلمات هنا وحيًا وإلهامًا، بل وتصير خلقًا إنسانيًّا.

بهذا الخلق ينتقل الفكر إلى الوجود، ولكي يفعل فهو بحاجة إلى الإنسان؛ لذلك عمل هايدغر على تحديد وفهم ماهيَّة الإنسان. ويحدث اللاَّ تحجُّب الذي يتيح لنا فهم الوجود من خلال فهمنا للحقيقة. ومن شرحه لماهيَّة الحقيقة، وصل بنا إلى تأويل لماهيَّة الإنسان، والتي يجب بدورها أن تُفهَم على أساس من فهمنا لماهيَّة الحقيقة، والتي تصل بنا إلى تحديد جديد للفلسفة، تلك التي ستصبح فكرًا جديدًا ينحو نحو الفلاسفة السابقين على سقراط.

[1]- المرجع سابق، صـ14.

[2]- زكريا إبراهيم، دراسات في الفلسفة المعاصرة، القاهرة: مكتبة مصر، دار مصر للطباعة، صـ421.

[3]- المرجع السابق،صـ422.

[4]- مارتن هايدغر، السكينة،(2004)، ترجمة رشيدة السائحي، مجلة مدارات فلسفية، منشور على موقع حكمة، صـ201.

هكذا يتبيَّن أنَّه لمعرفة الوجود يجب فهم ماهيَّة الحقيقة التي أغفلتها الميتافيزيقا، ولفهم ماهيّة الحقيقة، بوصفها كشف وإظهار وخروج من التحجُّب إلى اللاَّ تحجُّب، ينبغي تغيير طريقة التفكير في الوجود، والتي تستلزم أيضًا لغة مختلفة؛ فالفكر مختبئ في الُّلغة التي تعنى إنارة الوجود، وهكذا ينتقل بنا هايدغر من الُّلغة إلى الفكر إلى الوجود.

الخاتمة:

أشرنا سابقًا إلى أنَّ علينا الإيمان بأنَّ الُّلغة هي التي تستخدمنا ولسنا نحن من نستخدمها. وهذا قول يشبه في ظاهره ما قاله فرانسيس بيكون من أنَّ الُّلغة التي يظنُّ الإنسان أنَّه يستخدمها وأنَّها طوع أمره، إنمَّا هي التي تعود لتستخدمه؛ فيقع أسير أخطائها وأوهامها. ومن المعروف أنَّ بيكون هذا هو الجدُّ الذي انسلَّت منه المدرسة الإنكليزيَّة التحليليَّة في الُّلغة، والتي جعلتها همَّها الأكبر، وتتناولها كموضوع خارجيٍّ، وهو ما يتناقض تمامًا مع الوجهة الهايدغريَّة التي اتَّخذناها لنا في هذا المقال.

ولمّا كان بيكون يريد بتعبيره هذا أن يلفتنا إلى ضرورة الانتباه لأوهام الُّلغة لما يترتَّب عليها من سوء فهم واضطراب مفاهيم وتخبُّط في الواقع العمليِّ، فإنه، شأنه شأن العصر الحديث بأسره، يريد أن يُحكم القياد على الُّلغة، وأن يُخضعها ويُسيطر عليها، ومن ثم على سائر العالم الخارجيِّ، سواء تمثَّل هذا العالم في الطبيعة، أم في البلدان الأخرى التي يمكن استعمارها. ويكاد يكون الباعث البعيد والخفيُّ وراء المشروع العلميِّ بأسره، ومعظم المشروع الفلسفيِّ، إنمَّا هو هذه الرغبة الإنسانيَّة الدفينة في السيطرة على الأشياء: إنَّها رغبة الإنسان في ارتقاء قمَّة عالية مستقلَّة وثَّابة، يرقب منها الأحداث ماضيها وحاضرها ومستقبلها، ويكون بإمكانه التنبُّؤ بها والتحكُّم في مسارها.

ولا يتأتَّى لنا حلُّ هذا اللّبس وهذا التناقض الظاهريُّ بين بيكون وهايدغر، إلاّ بمعرفة ماذا يفهم كلٌّ منهما من لفظة «لغة». فعلى حين أخذها بيكون باعتبارها أمرًا بديهيًّا واضحًا، وهي ما يتداوله الناس في الأسواق، إذا بهايدغر يغوص فيها ليخرج لنا منها لآلئ لا تقدَّر بثمن. فإذا كانت العادة قد جرت على البحث عن المعنى وراء الُّلغة، فإننا نجد مع هيدجر أن الوضع الصحيح هو البحث عن اللغة من وراء المعنى؛ فما وراء المعنى، أو ما نحب أن نسميه بالمعنى الخالص، إنما هو معاناة خبرة الُّلغة. هذه المعاناة هي ما يمكن أن يشترك فيه بنو البشر رغم أي اختلاف بينهم، ويصدق عليها التعبير الصوفيُّ: «من ذاق عرف»؛ لأنَّ الخبرة قد تتَّفق رغم اختلاف الُّلغات والثقافات. وقد أتحدَّث عمَّا أعانيه وأختبره خير حديث، وأدقَّ تعبير، وأبلغ أسلوب، ومع ذلك لا يفهمني سامعي رغم اتفاقنا الُّلغويِّ والثقافيِّ، في حين يفهمني آخر مختلف عني بمجرَّد الإشارة والتلميح والإيماءة، بل حتى بمجرَّد الصمت!

وإذا كانت قد جرت العادة على مقاربة الُّلغة باعتبارها علاقة بين مفردات من ناحية، وأشياء أو وقائع من ناحية أخرى، فإنَّ هايدغر يذهب إلى أنَّ الُّلغة هي علاقة بيننا وبين الوجود: إنَّها وحي الوجود؛ فالُّلغة بمعناها الحقيقيِّ ليست هي الوسيط بين الأفراد، وبين بعضهم البعض، وإنما هي وسيط بين الإنسان الفرد، وبين الوجود العام.

من أجل ذلك، يطالب هايدغر بالاستسلام والخضوع لها كما لو إنَّها دعوة للسكينة والسلام. هذا في مقابل الدعوة القديمة المعتادة للإخضاع والسيطرة، وما جلبته على الإنسانيَّة من شرور وويلات لم تنته حتى الآن. وإذا كان أول ما يُفهم من هذا الكلام هو ضرورة أن يترك الناس واقعهم وحياتهم وأشغالهم ليعكفوا على ذواتهم، ويصيروا رهبانًا في صوامع الُّلغة، وآذانًا صاغية لهمسات الوجود؛ فإنَّنا نبادر إلى القول بأنَّ هذا أبعد ما يكون عن مرادنا، وأنَّه أيضًا مستحيل التحقُّق. غاية ما هنالك أنَّها دعوة لكبح جماح التيَّار الهادر السائد في الُّلغة والفكر ذاك الذي لا يعرف سوى السيطرة والقهر والتملُّك، والإحلال التدريجيِّ للتأنيّ والسكينة والسلام في هذا العالم الذي صار فيه كلُّ إنسان يلهث وراء رغبة... إنَّه اندفاع قسريٌّ ينال من إنسانيَّة الإنسان وكرامته، ويسلبه وجوده الحقَّ، كما يسلبه حريَّته التي ما فتئ يذود عنها، ويظنُّ أنَّه أخيراً عاش عصرها، وما يدري أنَّه ينجرف بلا هوادة نحو استرقاق متجدد في ما يفترضه العصر الجديد.

قائمة بالمصادر والمراجع:

المصادر:

1. مارتن هايدغر، ما الفلسفة؟ ما الميتافيزيقا؟ هيلدرين وماهيَّة الشعر،(1964)، ترجمة فؤاد كامل عبد العزيز و محمود رجب السيد، مراجعة عبدالرحمن بدوي، القاهرة: دار النهضة العربيَّة.
2. مارتن هايدغر، كتابات أساسيَّة، (2003)، ترجمة وتحرير إسماعيل مصدق، القاهرة: المجلس القومي للترجمة، الجزء الثاني، العدد505.
3. مارتن هايدغر، كتابات أساسيَّة، منبع الأثر الفني،(2003)، الجزء الأول، ترجمة وتحرير إسماعيل مظهر، القاهرة، المركز القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، عدد 504.
4. مارتن هايدغر، نهاية الفلسفة ومهمَّة التفكير،(2016)، ترجمة وعد على الرحية، تقديم ومراجعة على محمد إسبر، سوريا: دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، ط1.
5. مارتن هايدغر، الكينونة والزمان، (2012)، ترجمة فتحي المسكيني، مراجعة إسماعيل المصدق، بيروت: دار الكتاب الجديد المتَّحدة، الطبعة الأولي.

المراجع:

1. إبراهيم أحمد، (2008)، أنطولوجيا الُّلغة عند هايدغر، الجزائر: منشورات الاختلاف، الدار العربيَّة للعلوم ناشرون، الطبعة الاولي.
2. زكريا إبراهيم،(1968) دراسات في الفلسفة المعاصرة، القاهرة: مكتبة مصر، دار مصر للطباعة.
3. زكريا إبراهيم،(1972)، كانط أو الفلسفة النقديَّة، سلسلة عبقريَّات فلسفيَّة (1)، القاهرة: مكتبة مصر، طبعة ثانية.
4. سعيد توفيق، الُّلغة والتفكير الشعري عند هايدغر،(1998)، القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع.
5. -10 سيلفان أورو، جاك ديشان، وأخرون، فلسفة الُّلغة،(2012)، ترجمة وتقديم بسام بركة، مراجعة ميشال زكريا، بيروت: المنظمة العربية للترجمة.

6. عبد الغفار مكاوي، هلدرين،(1974)، سلسلة نوابغ الفكر الغربي (21)، القاهرة: دار المعارف بمصر.

7. عبد الغفار مكاوي، نداء الحقيقة،(2010)، القاهرة: الهيئة المصريَّة العامة للكتاب، سلسلة الفكر.

8. فتحي المسكيني، التفكير بعد هايدغر أو كيف الخروج من العصر التأويلي للعقل؟، (2011)، لبنان: جداول للنشر والتوزيع، ط1.

9. ديفيد كريستال، مختصر تاريخ الُّلغة، (2018)، ترجمة أحمد الزبيدي، دار الكتب العلميَّة، العراق.

المراجع الإنكليزيَّة:

1. Alfred jules Ayer, (1945),Language, Truth, and Logic, London: Gollancz, 2nd Edition.
2. Bret W. Davis,(2014), Martin Heidegger: Key Concepts, Routledge.
3. Michael Inwood, (2000), A Heidegger Dictionary, Series: The Blackwell philosopher, Blackwell Publishers.
4. Michael Wheeler, (2011), Martin Heidegger, The Stanford Encyclopedia of Philosophy, First published Wed Oct 12.

علم المبدأ ILMOLMABDAA
العدد الخامس - 1445هـ - ربيع 2023م